

عالمية الرسالة المحمدية - مقوماتها ومقاصدها - The Universality of the Prophethood Message - Its Strengthens and its Fundamentals

د. بوبكر بعداش¹

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية-قسنطينة-

badache.boubaker2019@gmail.com

تاريخ الوصول: 2019/02/24 القبول: 2019/11/29 / النشر على الخط: 2020/03/15

Received: 24/02/2019 / Accepted: 29/11/2019 / Published online : 15/03/2020

الملخص:

إن الرسالة التي جاء بها الإسلام توصف بالعالمية، بمعنى أنها للناس كافة لا يحدها مكان ولا يحويها زمان، ولا يخلو واقع الناس في حياتهم من حكم شرعي مقتبس منها، إنها الرسالة العامة والشاملة والخاتمة، جاءت لهداية الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم في أي نقطة من هذه الأرض.

إن هذه العالمية ليست من اختلاق النبي ﷺ ولا من اختراع المسلمين، وإنما نطق بها رب العالمين في القرآن الكريم، بعد أن بث فيها من المقومات والعناصر والمؤهلات والصفات ما يضمن لها ذلك، وكل ذلك لمقاصد عالية وغايات سامية فيها مصالح الخلق في كل العالم إلى قيام الساعة. وإن الناظر المنصف في مضمون هذه الرسالة وما جاءت به من تشريع، وما تهدف إليه من مقاصد يرى بأنها جمعت من المقومات والمؤهلات الأساسية لقيام حضارة عالمية إنسانية شاملة، وحقائق التاريخ والسيرة النبوية شاهدة على ذلك.

وهذه الورقة هي محاولة لبيان المؤهلات الأساسية والمقومات الرئيسية لعالمية الرسالة المحمدية، وكشف أهم المقاصد والغايات التي جاءت لتحقيقها في واقع الإنسان.

الكلمات المفتاحية: العالمي. الرسالة المحمدية . مقومات عالمية الرسالة. مقاصدها.

Summary:

The message brought by Islam is described universal, that is sent for all people, it is neither limited by place nor included in time, and the people real lives is not excluded of a legitimate judgment quoted from it. It is the general, the global and the final message, came to guide people of different races, colours, languages, habits and traditions everywhere in this earth.

This universality is not created by the Prophet, nor by the invention of Muslims. Rather, the Lord of the worlds uttered it in the Holy Qur'an, after it transmitted in it the ingredients, elements, qualifications and attributes that guarantee this, and all of that for high intentions and lofty goals

The fair viewer in the content of this message and the legislation that came with it, and what it aims at are intended to be seen as having gathered the essential ingredients and qualifications for a comprehensive global human civilization, and the facts of history and the prophetic biography bear witness to that.

This paper is an attempt to explain the basic qualifications and main ingredients of the universality of the Muhammad message, and to reveal the most important purposes and goals that came to achieve them in the human reality.

key words: Global; Message; Universal fundamentals ; The purposes.

١

مقدمة:

توصف رسالة الإسلام بالعالمية، بمعنى أنها جاءت للناس كافة لا يحدها مكان ولا يحويها زمان، ولا يخلو واقع الناس في حياتهم من حكم شرعي مقتبس منها، إنها الرسالة العامة والشاملة والخاتمة، جاءت لهداية الناس على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم وتقاليدهم في أي نقطة من هذه الأرض، إن هذه العالمية ليست من اختلاق النبي ﷺ ولا من اختراع المسلمين، وإنما نطق بها رب العالمين في القرآن الكريم، بعد أن بث فيها من المقومات والعناصر والمؤهلات والصفات ما يضمن لها ذلك، وكل ذلك لمقاصد عالية وغايات سامية فيها مصالح الخلق في كل العالم إلى قيام الساعة.

إنها رسالة عالمية أعدها العليم الخبير لهذا العالم كله، عالمية الرحمة فالله تعالى أعد رسالته الشاملة و العامة ليخاطب بها البشرية جمعاء، ويخرجها من التردّي والهبوط في مهاوي الظلال والهلاك، تلك هي آيات الرحمة العامة التي جاءت بها الرسالة المحمدية العالمية، فإن محمداً ﷺ الإنسان الكبير جاء إلى الأجناس كافةً بدين: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:157]

وإن الناظر المنصف في مضمون هذه الرسالة وما جاءت به من تشريع، وما تهدف إليه من مقاصد يرى بأنها جمعت من المقومات والمؤهلات الأساسية لقيام حضارة عالمية إنسانية شاملة، وحقائق التاريخ والسيرة النبوية شاهدة على ذلك، فقد حقق النبي ﷺ في مجتمع المدينة المنورة الجديد النواة الأولى والأساسية لهذه الحضارة العالمية؛ بما أرساه من قيم ومبادئ الأخوة، والمساواة، والحرية، والتكافل، و التناصر والتآزر، والولاية، والإيثار، والتضحية بالأموال والأنفس، حتى يحافظ على كيان الدولة الأولى في الإسلام، بمنهج وأسلوب لم يسبق إليه في تاريخ المجتمعات البشرية.

وهذه الورقة هي محاولة لبيان المؤهلات الأساسية والمقومات الرئيسية لعالمية الرسالة المحمدية، وكشف أهم المقاصد والغايات التي جاءت لتحقيقها في واقع الإنسان.

الإشكالية: يدعي بعض المرجفين والمعرضين أن الرسالة المحمدية محدودة المكان والزمان، وأن التعاليم التي جاء بها رسول الله ﷺ محلية إقليمية، أنزلت للعرب فقط في شبه الجزيرة العربية، وأن فكرة العالمية لم تخطر ببال محمد ﷺ وهو في مكة، إلا بعد أن تحققت له بعض الانتصارات في شبه الجزيرة العربية، وخاصة بعد فتح مكة ومن هنا نقل رسالته إلى العالمية؟ فما مدى صحة هذا الإدعاء بالنظر إلى مقاصد ومؤهلات هذه الرسالة؟

1- مفهوم العالمية:

أ- العالمية لغة:

تعريف العالمية لغة: مشتقة من كلمة، العالم وهو الخلق كله، والجمع العوالم، والعالمون، ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاتحة:1] وكل صنف من أصناف الخلق، عالم الحيوان، وعالم النبات، وعالم الإنسان¹

¹ الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار الحديث، القاهرة، دون ط، 1430هـ/2009م، ص/808. وجماعة من كبار اللغويين العرب، المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، توزيع لاروس، 1989، ص/861

وقال: الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان:1] أنه يتناول الجن والإنس والملائكة، لكننا أجمعنا أنه ﷺ لم يكن رسولاً إلى الملائكة، فوجب أن يبقى رسولاً إلى الإنس والجن جميعاً، ومن هنا يبطل قول من قال: أنه ﷺ كان رسولاً إلى البعض دون البعض، فلفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات، فدلّت الآية على أنه رسولٌ للخلق إلى يوم القيامة.¹

وفي اللسان: العالمون، أصناف الخلق، والعالم الخلق كله، وقيل: ما احتواه بطنُ الفلك، ولا واحد للعالم من لفظه، لأن عالماً جمع شيئاً مُتَّفَقَةً الجمع عالمون، وقيل: الجمع العالم الخلق العوالم وفي التنزيل قال الله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ [الفاحة:1] قال ابن عباس: رب الجن والأنس، وقال: فتادة: رب الخلق كلهم، وقال الأزهري: الدليل على صحة قول: ابن عباس قوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان:1] وليس النبي ﷺ نذيراً للبهايم ولا للملائكة وهم كلهم خلق الله، وإنما بعث محمدٌ نذيراً للجن والإنس، وقال الزجاج: معنى العالمين كلُّ ما خلق الله، وهو جمع عالم.²

ب-وأما العالمية اصطلاحاً:

من خلال التعريف اللغوي للعالمية يمكن أن نستخلص لها تعريفاً حسب ما جاء في القرآن الكريم، وورد في الأحاديث الصحيحة ومن ذلك معنى ما جاء قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾ [سباء: 28] قال الجوهري: اسم للجملة من الكف، كأنهم كفوا باجتماعهم عن يخرج منهم أحد، فإن الرسالة إذا عمت الناس فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم والمعنى القريب المتبادر: جامعة بمعنى جميعاً.³ وهذا صريح في أن البعثة المحمدية للناس جميعاً أي عامة، في كل زمان وفي كل مكان ولكل جيل، قال الزجاج: وما أرسلناك إلا جامعاً للناس بالإنذار والإبلاغ، والكافة بمعنى الجامع.⁴

وقد صرح الحديث الصحيح بهذا المعنى فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ

﴿أُعْطِيتُ خَمْساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مسيرة شهر، وجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وطهوراً، و أُمِّي رَجُلٌ من أُمَمِي أدركته الصلاة فليصل وأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قومه خاصّةً وبُعِثْتُ إلى الناس كافةً، وأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ﴾⁵ والكافة (العامة) في بعض الروايات تدل على الخلق جميعاً وهي هنا بمعنى العالمية، والمراد ناس زمنه فمن بعدهم

² الكفوي: الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: د.عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1432هـ/2010م، ص/538. وينظر: الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1401هـ/1981م، 45/24

² ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، 3085/4، وينظر: الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر، بيروت، ط6، 1426هـ/2006م، ص/259-260

³ الجوهري: المرجع السابق، ص/628-653-654

⁴ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، المرجع السابق، 288/14.

⁵ أخرجه البخاري: في كتاب الصلاة، باب: قول النبي (جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً)، ينظر: ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، القاهرة، ط1، 1407هـ/1986م، 634-635. ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: قوله ﷺ (وأينما أدركتكم الصلاة فصل فهو مسجد) بألفاظ أخرى، ينظر: النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ/1987م، ج2-1/3/5.

إلى يوم القيامة، قال المناوي: «أما بعثة المصطفى ﷺ فلم يختص بها قوم دون قوم ولا زمان دون زمان، بل دينه انتشر في المشرق والمغرب، و تغلغل في كل مكان، واستمر استمداده على وجه كل زمان».¹

-أما العالمية في الاصطلاح الحديث: فتعني الانتشار الواسع الذي يعم ويشمل أنحاء العالم (global)؛ بحيث لا يرتبط بحدود معينة أو لا يوجد بمنطقة معينة، ولا يخص فرداً، أو مجموعة من الأفراد أو دولة معينة بل يشمل العالم كله، وكل شيء معروف عند مجموعة من الناس حول العالم يسمى عالمي.²

فهي صفة يتميز بها شيء ما، وتدل على أنه معروف من قبل ملايين الأشخاص حول العالم، لذلك يطلق على الشيء المشهور، أو المعروف عند أغلب الناس مصطلح عالمي.³

وقيل في وصف العالمية: نزعة إنسانية توجه التفاعل بين الحضارات، والتعاون والتساند والتكامل والتعارف بين مختلف الأمم والشعوب، فهي تخاطب أعمق مشاعر الإنسان عموماً، وأقوى مشاكله، وأخص هوائه⁴

والعالمي من الأدب -مثلاً- هو الذي يتصيد، ما بين البشر جمعاء، العواطف المشتركة، وما في وجدانها من حقوق موحدة وقيم سامية، ومثل عليا على الرغم من اختلاف الأجناس وتباين الأزمان والأوطان، ويعد الحياة كرامةً والحرية حقاً، والعدالة الاجتماعية حتماً والفضيلة جوهرًا.⁵

وربما هذا أقرب المعاني إلى معنى عالمية الرسالة المحمدية: فهي الرسالة التي جمعت بين تعاليم السماء، و واقعية التطبيق على الأرض، بحيث لا تحمل أي طابع عنصري، أو إقليمي، أو طبقي؛ لأنها إما موجهة إلى الناس كافة، وإما موجهة إلى أهل الأديان السماوية السابقة من اليهود والنصارى، وإما موجهة إلى الذين آمنوا، فهي رسالة عامة في المكان، خالدة في الزمان، شاملة لكل شؤون الإنسان⁶

فالرسالة العالمية: بمعنى أن الناس يلتزمون بأحكامها، ويحكمون في شؤونهم إليها، رغم اختلاف أشكالهم وعاداتهم وأعرافهم، ومكانهم من هذا العالم، إنها شريعة عالمية زماناً ومكاناً تخاطب الإنسان، دون اعتبار للونه أو جنسه أو لغته. قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف:158] وقال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:107]

1 المناوي: فيض القدير، شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ/1994م، 1/725.

2 ينظر: مجد خضر، مفهوم العالمية، مقال منشور على الانترنت، ص/ 1، موقع: mawdoo3.com آخر تحديث، 22 مارس 2016 على الساعة، 12:08.

3 ينظر: مجد خضر، المرجع السابق. ص/1.

4 د. سليم بركات، مفاهيم ومصطلحات: العالمية والعولمة، مقال منشور على الأنترنت: مجلة النبأ، العدد: 74، ص/2، موقع: annabaa.org/nbhome/nba74/mafahem.htm

5 د. سليم بركات، مفاهيم ومصطلحات: العالمية والعولمة، المرجع السابق. ص/2.

6 د. القرضاوي يوسف: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1420هـ/2000م، ص/431-432

د- الألفاظ ذات الصلة بالعالمية

-العموم: في اللغة: العامة خلاف الخاصة، وعم الشيء يَعُمُّ عُموماً شَمِلَ الجماعة، والعَمَامُ الجماعة المتفرقة.¹ وعمّ يعم عموماً عامٌّ، شَمِلَ يقال: عمّ الخير جميع سكان هذا الإقليم بمعنى شملهم، وعموميّ عام شامل لجميع الناس.²

أما اصطلاحاً: فالعموم هو: العموم في البشر كافة، والعموم في الزمان والمكان، فهذه الرسالة شاملة لجميع البشر، لم تستهدف قوماً محددين في وقت أو بلد محدد، بل هي نداء إلى البشرية كلها ﴿نذيراً للبشر﴾ [المدثر:36] وخطاب للإنسانية جمعاء، دون استثناء.³

وهذا ما ذكره الإمام الشافعي في الرسالة بعد أن أوضح مراحلها الخطاب فيها⁴ كما جاء في القرآن الكريم، فقال: ثم بعد ذلك ذلك عمّ -الخطاب- الخلق بها بعدهم⁵ أي بهذه الرسالة الخالدة، وأوضح الله عمومها، فقال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً﴾ [سباء:28]

-الكافة: في اللغة: أي جميعاً، والكافة الجميع من الناس، يقال: لقيتهم كافةً، أي كلّهم.⁶ ومنه قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة﴾ [البقرة:208] أي جميعاً، أي أبلغوا في الإسلام إلى حيث تنتهي شرائعهُ، فَتَكْفُوا من أن تعدّوا شرائعهُ، كما يجوز أن يكون معناه ادخلوا في السلم كله في جميع شرائعهِ.⁷ وأما ابن عاشور فيذهب في تفسير كافة في هذه الآية بقوله: «كافة: اسم يفيد الإحاطة بأجزاء ما وصف به، وتفيد مُفَاد أَلْفَاظ التوكيد الدالة على الشمول والإحاطة، وكافة حال من ضمير، ادخلوا أي حالة كونكم جميعاً، لا يستثنى منكم أحدٌ».⁸

وأما اصطلاحاً: معناها الشمول والإحاطة بأجزاء الشيء، إلى الحد الذي يبلغ العموم، و الكلية. وهي معناها في التنزيل: جميع الأمم والشعوب على اختلاف مكانها و زمانها وأجناسها.

-العولمة: كلمة جديد جاءت مع الهيمنة الغربية الحديثة، ولم تظهر كمصطلح إلا في التسعينات، وهي كلمة منسوبة إلى "العالم" أي الكون وليس إلى "العالم"، ولهذا فهي توصف بأنها شيء جديد، أو نظام جديد يراد به توحيد العالم في إطار جديد واحد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً، ومن هنا أطلق البعض عليها "النظام العالمي الجديد"

1 الجوهري: الصحاح، المرجع السابق، ص/813.

2 جماعة من كبار اللغويين: المعجم العربي الأساسي، المرجع السابق، ص/869.

3 طه جابر العلواني: أبعاد غائبة عن فكر وممارسة الحركات الإسلامية المعاصرة، ط2، 1417هـ/1997م، ص/21

4 الإمام الشافعي: الرسالة، ت: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، 1309هـ/1892م، ص/12-13-14.

5 الإمام الشافعي: الرسالة، المرجع السابق، ص/14.

6 الجوهري: الصحاح، المرجع السابق، 1004.

7 ابن منظور: لسان العرب، المرجع السابق، 3904/5.

8 ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس ط1، 1984، المرجع السابق، 278/2.

وهي في اللغة: مشتقة من عولمة على وزن فوعلة، ولكن الوزن لا يشير إلى المعنى كما أن الاشتقاق الثلاثي علم عالم عالم عولم عولمة مع زيادة التاء لا يدل في معنى الكلمة على مفهوم مباشر، بل يدل كمصطلح على مجموعة من المعاني، فهي لا تعني العالم العالمية ولا تعني العلم العلمية، بل يأخذ المصطلح مفهوم الشمولية أي العالمية.¹

وأما اصطلاحاً: فيرتبط المصطلح بالثورة العلمية التكنولوجية الشاملة أي بالحركة التنويرية العالمية. وهذا هو المفهوم الإيجابي للعولمة. وأما المفهوم السلبي لها فهي تعني: الشمولية والتسلط، أي تسلط الدولة المهيمنة تكنولوجياً أو علمياً حيث ترتبط الكلمة بمفهوم الإمبريالية كسيطرة عالمية للرأسمالية، وكلمة الهيمنة الفكرية والثقافية، فهي تعني شمولية فكر وثقافة وحضارة الآخر الأقوى، اقتصادياً وثقافياً وسياسياً، مما ينتج عنه سيطرة الإيديولوجية والفلسفة الرأسمالية فكرياً وثقافياً وسياسياً.²

وهي بهذا المفهوم تفتقر عن معنى عالمية الرسالة المحمدية من عدة وجوه أهمها:

- أن عالمية الرسالة المحمدية انفتاح على العالم لهدايته بالوحي الذي أنزله الله على خاتم الرسالة، وإقرار بتباين الثقافات والحضارات، والأعراف. وأما العولمة فهي انفتاح على ثقافة واحدة وهي ثقافة الهيمنة الأمريكية وسيطرة الرأسمالية، ورفض لما عداها من الثقافات.

- إذا كانت وسيلة عالمية الرسالة التعايش مع الحضارات والأجناس ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذي تسألون به والأرحام﴾ [النساء:1] فإن وسيلة العولمة الصدام والصراع بين الحضارات.

- وإذا كانت العولمة غزواً ثقافياً واختراقاً لخصوصيات الثقافات القومية والوطنية، وهيمنة اقتصادية وسياسية، فإن العالمية الإسلامية إثراء لهذه الثقافات وتلاقحها وتواصلها حضارياً وعلمياً وثقافياً.³

العالمين: في اللغة: العالم وهو الخلق كله.⁴

أما اصطلاحاً: فالمراد بالعالمين في قوله تعالى: ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾ [الفرقان:1] جميع الأمم من البشر، لأن العالم يطلق على الجنس وعلى النوع وعلى الصنف، بحسب ما يسمح به المقام، وفي الآية دلالة على عموم الرسالة⁵

2- مقومات العالمية ومؤهلاتها

مقومات العالمية ومؤهلاتها هي مجموعة العناصر والعوامل الأساسية التي تقوم عليها الرسالة المحمدية، أو هي تلك الصفات العامة والخصائص الهامة التي رشحتها، وأهلتها لبلوغ ذلك الشأن البعيد، في عالم الإنس والجن. فهي ليست من اختلاق النبي

1 ينظر: عبد الرحمن عبد الله سليمان الأغبري، العولمة وخطرها على الأمة الإسلامية، من الناحية السياسية والثقافية والاجتماعية، دراسة استقرائية وصفية تحليلية، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ط1، 1428هـ/ 2007م، ص/15.

2 ينظر: عبد الرحمن عبد الله سليمان الأغبري، العولمة وخطرها على الأمة الإسلامية، المرجع السابق، ص/ 15-16.

3 د. سليم بركات، مفاهيم ومصطلحات: العالمية والعولمة، المرجع السابق، بتصرف. ص/2-3.

4 ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، 3085/4.

5 ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، المرجع السابق، 317/18.

الخاتم ولا من ابتداع أتباعه يوم كان لهم الفتح والتمكين في مكة، بل هي رسالة إلهية قدسية، تضمنت من المؤهلات والعوامل ما جعلها عالمية بامتياز، وأهم تلك المقومات والمؤهلات كالآتي:

أ- قامت على التوحيد الحق النقي من كل الخرافات والتعددات، التوحيد الذي ينبذ عبادة الإنسان للإنسان فقطعت بذلك أصول الفساد وأعلنت للناس بوضوح وجلاء ﴿ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون الله﴾ [آل عمران: 64] كما أعلنت في العالم على لسان الأنبياء جميعاً أن يبلغوا للناس - وهم أعلى مراتب البشر طهراً ونقاءً وصفاءً - بأن يقولوا: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ [آل عمران: 80] فلا ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة، وأن يقول للناس اعبدوني من دون الله، أي مع الله، فإذا كان هذا لا يصلح لني ولا لمرسل، فلا أن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأخرى.¹

إن الديانات السابقة قامت على توحيد مشوب، كثيراً ما يختلط بألوان متباينة من التعدد ولذلك يقول جل شأنه: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ [يوسف: 106] فهذه الديانات كان القوم فيها يعبد بعضهم بعضاً، فأهل الكتاب كانوا يعبدون أحبارهم ورهبانهم من دون الله كما قال عز وجل: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ [التوبة: 80]

لقد جاءت الرسالة العالمية بالتوحيد الذي يعلن أن الخالق واحد، خلق كل شيء، وتنزه عن مشابهة شيء قال الله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير له مقاليد السموات والأرض يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾ [الشورى: 11-12]

التوحيد المطلق هو الحق الذي شرحت رسالة محمد العالمية حقيقته، وبسطت أشعته، ورفعت رايته، وجمعت الأولين والآخرين في العالم تحت مظلته. وبينت العلاقة الوحيدة الصحيحة بين الناس ورب الناس، هي إسلام الوجه له وحده، وإحسان الاستمداد منه، والاعتماد عليه، واعتبار الدنيا مهاداً للآخرة وجهاداً لكسبها.²

هذا التوحيد هو السمة البارزة في هذا الرسالة الخالدة، وكما يقول طه جابر العلواني: «تميزت الحضارات الإسلامية ضمن مراكزها العربية (المدينة المنورة، دمشق، بغداد، القاهرة وغيرها، بعقيدة توحيد كان من شأنها - ولا زالت - ألا تستعلي بإلهها (الخاص) الذي لم يكن خاصاً لأنه إله الجميع، على آلهة الشعوب الأخرى، فقد انطلقت الحضارة الإسلامية العالمية من محاربة الشرك ونشر التوحيد الواضح الناصع. فكان الكيان الإسلامي أول كيان عالمي يتآلف فيه جميع الذين يصدر عن الأديان الإبراهيمية وغيرهم، ولا يكره أحد على تغيير دينه ﴿لا إكراه في الدين﴾ [البقرة: 256]»³

ب- مطابقة مضمون الرسالة لمقتضيات الفطرة التي فطر الله الناس عليها: بمعنى أنها رسالة تتفق وجوهر إنسانية الإنسان، ومقومات فطرته التكوينية، ظاهراً وباطناً، بمقتضى قول الله تعالى: ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾ [الروم: 30] ووصف الرسالة العالمية بأنها تتفق مع الفطرة؛ بمعنى أن الأصول

¹ ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار السلام، الرياض، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1414هـ/1994م، 501/1.

² ينظر في هذا المعنى، محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار القلم، دمشق، ط4، 1420هـ/1999م، ص/222.

³ طه جابر العلواني: أبعاد غائبة عن فكر وممارسة الحركات الإسلامية المعاصرة، ص/ 29-30.

التي جاءت بها هي من الفطرة، كما أن الأصول الفطرية التي خلق الله عليها الإنسان المخلوق لعمران العالم، هي إذن الصالحة لانتظام أمر هذا لعالم على أكمل وجه. وهي إذا ما تحتوي عليه هذه الرسالة الذي أرد الله أبها صلاح العالم بعد اختلاله.¹

ج-قامت على وراثة الأديان كلها: وما احتوته من قيم وخير وصلاح، فالأديان السابقة منها ما كان عالميا في رأى البعض ومنها ما كان قوميا ﴿و رسولا إلى بني إسرائيل﴾ [آل عمران: 49] ومنها ما كان إقليمي أو محلي، لكن الإسلام جمع الأديان كلها، وجمع الكتب كلها ﴿لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون﴾ [البقرة: 136]، والقرآن يصف نفسه بأنه مهيمن على الكتب السابقة ومصدق لما جاءت به واحتوته من قيم إنسانية عليا، ومن دعوة للخير ونبد الأهواء والضلال، قال الله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ [المائدة: 48] بذلك صار الكتاب الذي أنزل على رسول الله هو رسالة القيم العالمية للإنسانية كلها، والمعتقدات العالمية للبشرية كلها، والمبادئ العالمية التي تصلح أو صلحت لها ذات يوم في الرسالات السابقة احتواها هذا القرآن في رسالة خالدة قال الله تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [الحديد: 28] فالله تعالى أرسل الرسل وأنزل معهم الكتاب والميزان، لغرض واحد يشترك فيه جميع الأنبياء والرسل، ليقوم الناس بالقسط. هذا القسط احتوته رسالة محمد وكذلك جميع المعتقدات الصحيحة والقيم الأخلاقية القويمة، والتشريعات الواضحة المستقيمة، فرسالة محمد العالمية ورثت الرسالات السماوية كلها.

د-قامت على عدم الإكراه على اعتناق العقيدة الحققة: لأن الإكراه على اعتناق عقيدة معينة، أو فكرة خاصة، لا وزن له في نظر الرسالة العالمية الخاتمة، فلا قيمة لعقيدة أو فكرة جاءت عن طريق التقليد أو نشأت من مصدر القهر والإكراه، بل ينبغي أن تكون نتيجةً للتفكير الحر النزاه المجرد، ووليدة النظر الصحيح والاستدلال العلمي الذي يكون الاقتناع الذاتي، ذلك لأن الإكراه والقهر لا يؤسس عقيدة، ولا يرسخ مبدأ، ولا يكون قناعة، ولا ينتج أثراً، ولا يُولد فكراً، لذا كان الإكراه في الدين مُحَرَّمًا في الإسلام.² قال الله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرُّشد من الغي﴾ [البقرة: 256]، ومن هنا وضع الإسلام ركنا أساسيا في رسالته العالمية، من شأنه أن يُبلِّغها غايتها في العالمين، وهو حرية الدين، حتى لا يكون الإكراه في الدين، أو الاختلاف فيه، عقبةً في سبيل تحقيق غايته الحضارية من الصلاح والإصلاح العالمي.³

وهذه الرسالة العالمية بحكم واقعيتها ترى أن توحيد الناس في معتقد واحد أمر محال، لقوله تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ [يوسف: 103] وقوله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا﴾ [يونس: 99] وقوله عزو جل: ﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين﴾ [الأنعام: 35]

فالرسالة الخاتمة جاءت محررة للإنسان، ومحررة للشعوب، من الإكراه، والقهر، والاستبداد، كما أن عقيدتها ليست من شأنها الاستعلاء والإلغاء، بل هي دعوة لتحقيق غايات إنسانية مشتركة بين البشر جميعا، تتلخص في إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وهذا خطاب متجرد عن

1 ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، ت: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط2، 1421هـ/2001م ص/264.

2 فتحي الدريني: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي، دار قتيبة، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، 1/ 133-134.

3 فتحي الدريني: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي، المرجع السابق، 133.

أية مكاسب قومية أو ذاتية، أو عرقية، كما أن هذه الرسالة العالمية قد نسخت الهيمنة الإغريقية والرومانية، وحتى الغربية المعاصرة، فهي دعوة إلى حرية العقل والتفكير الإنساني.¹

فالإنسان في هذه الرسالة لم يُخلق حراً كما يقولون، وإنما خُلِق ليكون حراً؛ لأنه قبل التكليف و الشرع لم يكن شيء مذكوراً، وبالتكليف والمسؤولية، أصبح ذا قدر وشأن بنص القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً﴾ [الإنسان: 10] فالإنسان لم يُخلق حراً، وإنما خلق ليكون حراً، وذلك منذ أن أصبح يعتقد بأنه مكلف ومسؤول، بما حمل من أمانة التكليف التي حررت اعتقاداً وعملاً، حسبما سن هذا التشريع ورسم في هذه الرسالة العالمية.²

هـ-قامت على الشهادة العالمية على الناس: هذه الشهادة التي هي تكليف منوط بالأمة؛ من حيث البيان والبلاغ والإصلاح و الإنقاذ، قبل أن تكون تشريفاً ومظهراً من مظاهر التفاخر والمباهاة، جاء في البيان الإلهي قول الله تعالى: ﴿ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس﴾ [الحج: 78] الشهادة العالمية الحضارية نتيجة ضرورية للمهام الكبيرة التي كلف الله بها هذه الأمة، أفراداً وجماعات ومؤسسات، ومجتمعات كل من منطق مسؤوليته ورسالته، كما أن هذه الشهادة من حيث هي إقامة الحجة الثقافية والبلاغية على جميع الناس، وإبراء للذمة الحضارية، وبيان لحقيقة التكليف، ووصول الشرع، وفوق كل هذا فهي عنوانا لهيمنة القيم الإنسانية والتصديق العالمي.

فالعرب الفاتحون حين خرجوا بهذه الرسالة إلى العالمين، لم يكن خروجهم ذاتياً من أنفسهم، وما كان خروجهم من طبيعتهم اختياريّاً ولا استعماريّاً للهيمنة والسيطرة، ولكن الله تعالى هو الذي أخرجهم في إطار تكليف إلهي محدد ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وألئك هم المفلحون﴾ [آل عمران: 104]، فلم يكن خروجهم في إطار دافع استعلاء قومي ذاتي، وعلاقتهم بالقرآن والرسالة العالمية التي اشتمل عليها علاقة تكليف وتبيين وإيمان وشهادة، لا علاقة إنشاء وتوليد من ذواتهم، وقد خرج حملة الرسالة الخالدة، إلى العالم ليحققوا مهمتين، مهمة البلاغ والدعوة إلى الإيمان بالله الواحد لتحقيق الشهادة على الناس، ومهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لسيادة قيم الإنسانية الواعية والرسالة الخاتمة، قال الله تعالى في بيان هذين المهمتين: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران: 110]

و من هنا كان حمل الرسالة إلى الناس والقيام بأمانة الشهادة عليهم ليس خياراً تستطيع الأمة أن تقوم به أو تتخلى عنه أو تتساهل فيه، بل إن مهمتها مستمرة عبر الأجيال في التبليغ والبيان حسب الوسائل المتاحة، حتى تحقق هذه الشهادة.

و-قامت على القدوة العالمية ممثلة في شخص رسول الله الذي بالغ الكمال البشري في أخلاقه ونبل معدنه حتى كان قدوة للعالمين، فالبشرية مهما كان مكانها في هذا العالم، ومهما كان زمانها عبر التاريخ، مازالت تنهل من هدي محمد ﷺ الذي استحق المدح من رب السموات: ﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾ [القلم: 4] وما ذلك إلا لأنه حَكَم الوحي -المنزل عليه-

1 ينظر في هذا المعنى: طه جابر العلواني: أبعاد غائبة عن فكر وممارسة الحركات الإسلامية المعاصرة، ص/ 23

2 ينظر بتوسع، فتحي الدريني: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي، المرجع السابق، 105.

على نفسه، حتى صار في علمه وعمله على وفقه، فكان الوحي حاكماً، وكان هو عليه الصلاة والسلام قائلاً: مُذْعِنًا مُلْبِياً نداءه، واقفاً عند حكمه، وهذه الخاصية كانت من أعظم الأدلة على صدقه فيما جاء به.¹

وانظر إلى قوله تعالى في وصف الهدي الذي جاء به: ﴿وكذلك أوحينا إليك رؤحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ [الشورى: 52] فهو عليه الصلاة والسلام أول من هداؤه الله بالكتاب والإيمان، ثم من اتبعه فيه، والكتاب هو الهادي، والوحي المنزل عليه هو مرشداً ومبيناً لذلك الهدي والخلق مُهْتَدُونَ بالجميع. ولما استنار قلبه وجوارحه ﷺ وباطنه وظاهره بنور الحق علماً وعملاً، صار هو الهادي الأول لهذه الأمة والمرشد الأعظم، حيث خصَّه الله دون الخلق بإنزال ذلك النور عليه.²

إن محمداً صاحب الرسالة العامة والخاتمة، هو الإنسان الذي اختاره الله رحمة للعالمين، وقدوة للناس أجمعين، إنه القائد الروحي والفكري لمواكب الأحياء، والأجيال ما بقي الليل والنهار، وسيرته قدوة ترمقها بصائر المؤمنين في كل وقت، وتستمد منها طهارة القلب من الإثم، وطهارة العقل من الخرافة، إنه ﷺ قدوة دائمة لأتباعه، وأسوة حسنة لمن يحبون الله ويرجون رحمته.³ قال الله تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾ [الأحزاب: 21]

ومن عادة الإنسانية أن تضع مشاهير العالم نماذج بشرية وقدوة للأجيال في ميادين شتى من الحياة (علمية، فكرية، فلسفية، سياسية،...) ومن هنا جعل الله للرسالة العالمية قدوة عالمية؛ بما بلغته من صفاء وطهر وكمال، وصدق وإخلاص في أداء الرسالة للعالمين. قال الله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ [آل عمران: 164]

فهذا النموذج الذي يحتذي به العالمين، جاء من (أنفسهم) بمعنى المماثلة لهم في الأشياء التي تكون المماثلة فيها سبباً لقوة التواصل، والقدرة على الفهم واستيعاب مفاتيح الوحي، وهي هنا النسب واللغة والوطن والعرب والنوع البشري، فهو من جنسكم -ليس ملكاً أو شيء آخر-، وذلك بالركون إليه وعدم الاستيحاش منه، وكونه يتكلم بلسانهم يجعلهم سريعين إلى فهم ما يجيء به، وكونه جارا لهم، وريبا فيهم يجعل لهم التصديق برسالته، إذ يكونون قد خبروا أمره، وعلموا فضله، وشاهدوا استقامته، ومعجزاته.⁴

ز-قامت على الصلاح في العقائد والعبادات فهي صالحة في العقيدة، وصالحة في العبادة وصالحة في القيم والسلوك قال الله تعالى: ﴿لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم

1 الشاطبي: الاعتصام، ت: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1408هـ/1988م، 339/2.

2 الشاطبي: الاعتصام، المرجع السابق 338/2-339.

3 محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار القلم، دمشق، ط، 4، 1420هـ/1999م، ص/230.

4 ابن عاشور: التحرير والتنوير، 158/4.

ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» [آل عمران:164] والمراد بالحكمة في الآية ما اشتملت عليه رسالته من تهذيب الأخلاق، وتقنين الأحكام، لأن ذلك كله مانع للأنفس من سوء الحال واختلال النظام¹.

ح-قامت على الحرف القرآني الميسر للذكر: إن هذا القرآن موجه لكل البشرية على اختلاف لغاتها وقومياتها، وأعرافها، وهذه ميزة اختص بها القرآن العظيم المعجز، فإن الألسن الأعجمية على اختلاف لغاتها، ولهجاتها إذا أتيح لها التعامل مع الحرف القرآني، وجدته أسهل حفظاً وأيسر استيعاباً والواقع القديم والحديث يصدق هذه الظاهرة في عالمية الحرف القرآني. فشعوب آسيا وإفريقيا الغربية في العجمي، تحفظ القرآن حفظاً جيداً، يقول الحق تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر﴾ [القمر: 17] قوله تعالى: ﴿فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون﴾ [الدخان: 58] واليسر هنا السهولة وعدم الكلفة في تحصيل المطلوب من شيء، وإذا كان القرآن كلاماً فمعنى تيسيره يرجع إلى تيسير ما يُراد من الكلام، وهو فهم السامع المعاني التي عنها المتكلم به، بدون كلفة على السامع². فهو سهل على المتلقين فهمه دون مشقة ولا كلفة. وسهل على القاريين له مهما كان لسانهم عربي أو أعجمي فهذا اليسر يحصل من جانبين: جانب الألفاظ، وجانب المعاني، فأما جانب الألفاظ: فذلك بكونها في أعلى درجات فصاحة الكلمات، وفصاحة التراكيب، أي فصاحة الكلام وانتظام مجموعها، بحيث يخف حفظها على الألسنة (أيا كان هذا اللسان أعجمياً أو عربياً) وأما جانب المعاني: فبوضوح انتزاعها من التراكيب ووفرة ما تحتوي عليه التراكيب منها من مغازي الغرض المسوقة هي له، ويتولد معان من معان أخر كلما كرر المتدبر تدبره في فهمها³.

ط-رسالة تامة لا نقص فيها ولا خلل بنص القرآن: قال الله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة:2] فهي رسالة جمعت من الأصول والمبادئ ما جعلها صالحة لكل زمان ومكان، وتنوع أحوال الإنسان، وكما يقول الإمام الشاطبي: «القرآن مع اختصاره، جامع، ولا يكون جامعاً إلا والمجموع فيه أمور كلية، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله لقوله تعالى: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة:2]، فتعريف القرآن بالأحكام الشرعية أكثره كلي لا جزئي؛ وحيث جاء جزئياً فمأخذه على الكلية، إما بالاعتبار أو بمعنى الأصل، إلا ما خصه الدليل⁴. ويعلق عبد الله دراز على معنى (الكلية) في كلام الشاطبي بقوله: «ومعنى الكلية هنا أنه لا يختص بشخص دون آخر، ولا بحال دون حال، ولا زمان دون آخر، وأيضاً ليس مفصلاً مستوعباً لشروط وأركان وموانع ما يطلب أو ينهى عنه وهو المسمى بالمحمل⁵. فالعالم بالقرآن عالم بجملة الشريعة إجمالاً، لا ينقصه من إجمالها وكتليتها شيء، وقوله تعالى: ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ [الإسراء:9] يعني الطريقة المستقيمة وهي النظام الكامل في معاملة الخلق والخالق، ولو لم يكمل فيه جميع معانيها، لما صح إطلاق هذا المعنى عليه حقيقة⁶.

1 ابن عاشور: التحرير والتنوير، 159/4.

2 ابن عاشور: التحرير والتنوير، 188/27.

3 ابن عاشور: التحرير والتنوير، 188/27.

4 الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1395هـ/1975م، 366/3-367.

5 عبد الله دراز: تعليق بهامش الموافقات، المرجع السابق، 366/3.

6 الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، المرجع السابق، 369/3.

فالرسالة العالمية قامت على أصول التمام والكمال فهي رسالة تامة في أصولها، كاملة في مبادئها العامة، فهي لا تحتاج إلى من يكملها أو يسد الخلل فيها. قال الله تعالى: ﴿وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم﴾ [الأنعام:115].

3- مقاصد عالمية الرسالة المحمدية

وهي الغايات والأهداف العامة الكبرى، التي من أجلها كانت الرسالة المحمدية عالمية؛ لكل الناس على مختلف ألوانهم وأجناسهم ولغتهم ويمكن أن نحمل هذه الأهداف في العناصر الآتية:

أ- **القضاء على العنصرية** لجهة اللون أو الجنس أو العرق أو اللغة أو أي توجه آخر غير توجه العقيدة الصحيحة الحق، وذلك مدعاة إلى التعاون الإنساني في دائرة البر العام، والتواصل الحضاري، على الصعيد الدولي، بين الأمم الشعوب، حتى يتم التكافل فيما تتطلبه المعايير من حاجات لا يستقيم أمر الحياة بدونها، ومما يُفتقد عند بعضهم، ويتوافر عند الآخرين، ويحرم أن يكون الاختلاف في

الألوان والأجناس سببا في تقطع وشائج الأرحام الإنسانية، بالاحترا ب والافتتال، والاختلاف، وتسافك الدماء،¹ قال الله تعالى ﴿واتقوا الله الذي تسالون به والأرحام﴾ [النساء:1] وحتى الاختلاف في الأديان لا يسوغ أن يكون مثار تظالم واعتداء، وقد أمر الله نبيه أن يقول لمخالفيه كلهم: ﴿آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وبينكم واليه المصير﴾ [الشورى:15] ومما جاء في البيان النبوي العالمي قوله ﷺ ﴿إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ﴾.²

و في هذا دليل على التواضع وخفض الجناح والرحمة للخلق وغيرها من الأخلاق التي هي أساس التعايش بين بني البشر، و حتى لا يرى له على أحد فضلا، ولا يرى له عند أحد حقا بل ويرى الحق له. قال المجد ابن تيمية: «نهى الله على لسان نبيه ﷺ عن نوعي الاستطالة على الخلق وهي الفخر والبغي؛ لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر أو بغير حق فقد بغي فلا يحل هذا ولا هذا».³

بل إن التفاضل والتفاوت بين الناس لا يكون إلا بما يقدمه الفرد من خير وصلاح ونفع ﴿إن أكرمكم عند الله اتقاكم﴾ [الحجرات:13] ومن هنا فقد تميزت الحضارة الإسلامية العالمية بعدم استعباد شعوب المناطق المفتوحة، فلا المدينة بناها عبيد يستقدمون من المناطق المفتوحة و يسخرون لبناء الهياكل، والقصور، والدور ولم تب دمشق أو بغداد أو القاهرة بهذا

1 فتحي الدريني: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قتيبة، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م، 132/1.

2 أخرجه مسلم في كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار، ينظر: النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ/1987م، ج17/200.

3 المناوي: فيض القدير، 274/2.

الشكل، والزكاة كانت توزع في مناطق جبايتها، وهي لا تخرج من حدود وجوبها إلا للضرورة.¹ وللمؤلفة قلوبهم من غير المسلمين حظ فيها، في حين بنى العبيد المسخرون صروح أثينا وروما. فالنسق الحضاري الإسلامي العالمي في إنسانيته هو نقيض النسق الحضاري الهيليني² والروماني.³

ومن هنا وجدنا القرآن العظيم يهدم أصل التمييز العنصري من أساسه، لأنه منشأ الشرور والمفاسد في العالم، و أشار إلى أن هذا الاختلاف في اللون أو اللغة، أو الجنس هو أثر من آثار الخالق وسنة من سنن الله في إيجاد الخلق، كتصرفه تعالى في خلق السموات والأرض. قال الله تعالى ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ [الروم: 22] وبين أن اللون أو اللغة، لا تصلح أساساً للتمييز والتفاضل في منطق هذه الرسالة العالمية، ولا حتى في منطق العقل الإنساني السليم، بل التفاضل والتفاوت بين البشر يكون مما للإنسان فيه كسب أو خيرة أو عمل أو اجترار لقوله تعالى: ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ [النجم: 39] قوله تعالى: ﴿ولكل درجات مما عملوا﴾ [الأنعام: 132] وبذلك قضى الإسلام على أكبر سبب من أسباب الاضطراب العالمي، وأعظم مثار للعدوانية والحروب، وأرسى مبدأ المساواة بين الشعوب بهذا المعنى الإنساني العالمي الشامل.⁴

ب-توحيد القصد والوجهة والتلقي والعبادة عن طريق رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: 31] فهو القدوة الأولى التي ترجمت آيات الوحي الكريم إلى سلوك يراه الناس في الواقع كما ذكرت عائشة فقالت: «كان خلقه القرآن»

ج-توحيد الكيفيات والرسوم التعبديّة في كل الشعائر، كالطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج، لأن الله لا يعبد إلا بما شرع، ولأن العبادات والشعائر مما اختص ببيان كيفياته المحدودة ورسومه المعهودة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، و لأن المقصود بها تعظيم الله تعالى والتعبد له وحده، والخضوع لجلاله، و إخلاص القصد والتوجه إليه، كان له جل شأنه تعالى أن يختار من الشعائر وكيفياتها المعينة ما يشاء لِيَتَعَبَّدَنا به، ولم يكن لأحد الحق في أن يُنشئ شيئاً من الشعائر و التعبدات ليتقرب بها إلى الله تعالى، لأنه لا أحد يعلم وجه الحكمة من اختياره تعالى عبادات بعينها دون غيرها، ومن ثم لا يمكن أن يُعبد إلا بما شرع هو سبحانه وتعالى،⁵ وهذا هو المعنى الذي رамه صاحب المنقذ من الضلال حيث قال: «فكذلك بان لي، على الضرورة، أن أدوية العبادات بمحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب

1 ينظر: الصادق عبد الرحمن الغرياني: مدونة الفقه المالكي وأدلته، مؤسسة الريان، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م، 21/2 في مسألة: شروط صحة الزكاة، صرف الزكاة في البلد الذي وجبت فيه، أو قريب منه، بما لا يزيد على مسافة القصر.

2 الهيليني: وهي الحضارة الهلينية الإغريقية قد ظهرت في مرحلة يونانية متأخرة وتشمل البقاع التي تألفت منها إمبراطورية الإسكندر وبلاد اليونان، والحضارة الهلينية مستمدة من كلمة هيلين وهي الاسم العرقي الذي يطلقه اليونانيون على أنفسهم، بجدهم الأسطوري هيلين hellen

3 ينظر في هذا المعنى: طه جابر العلواني: أبعاد غائبة عن فكر وممارسة الحركات الإسلامية المعاصرة، ص/ 30

4 فتحي الدريني: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، 112/1.

5 ينظر بالتوسع والتفصيل، د. نعمان جعيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، دار النفائس، الأردن، ط1، 1422هـ/2002م، ص/202.

فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة لا ببضاعة العقل».¹ ومن هنا جاء الحديث: ﴿صلوا كما رأيتموني أصلي﴾²

و﴿خذوا عني مناسككم﴾³ فأحكام الشعائر التعبدية مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، وكيفيات لا تخلو عن سر من الأسرار، وكل ذلك من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها إلا بنور النبوة أو الوحي الإلهي⁴ ثم إن الرسالة العالمية تضم الملايين والملايير من البشر في حدود المكان، وعبر امتداد الزمان، فلو كان للبشر أن يخترعوا مع الشعائر التعبدية ما يناسب حياتهم، لانقلبت العبادات والشعائر إلى فوضى لا ضابط لها، ولأدى ذلك إلى إتباع الأهواء وتشريع ما لم ياذن به الله تعالى، وأصبح ما يراه أهل عصر عبادة، يراه غيرهم عادة وهكذا، فلو ترك الناس والنظر والزيادة لانتشر ولم ينضبط، وتعذر معه الرجوع إلى أصل شرعي، والضبط أقرب إلى الانقياد ما وجد إليه سبيل.⁵

والخلاصة:

نخلص في آخر هذه الورقة أن عالمية الرسالة المحمدية لم تكن وليدة تفكير بشري أو اجتهاد إنساني، وإنما كانت عالميتها بتدبير العليم الخبير سبحانه وتعالى، بعد أن بث فيها من المقومات والمؤهلات ما رشحها لذلك، ولذلك تضمنت من المقاصد والغايات ما جعلها رسالة الله إلى بني الإنسان في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة.

1 الغزالي: مجموعة رسائل الإمام الغزالي (كتاب المنقذ من الضلال) دار الفكر، بيروت، 1429هـ/2008م، ص/558.

2 أخرجه البخاري: في كتاب الأذان، باب: الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة، ينظر: ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، المرجع السابق، 131/2-132.

3 أخرجه مسلم في كتاب: الحج، باب: استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا بلفظ(لتأخذوا مناسككم فيني لا أدري لعلني لا أحج بعد حجتني هذه)، ينظر: النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، ج44/5/09. واللفظ للنسائي: في كتاب: مناسك الحج، باب: الركوب إلى الجمار واستغلال الحرم، رقم: 220 (يا أيها الناس، خذوا مناسككم)، ينظر: السيوطي، سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1411هـ/1991م، 298/5.

4 الغزالي: المرجع السابق، ص/558.

5 الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، ت، عبد الله دراز، دون تاريخ الطبع، 301/2-309.

قائمة المصادر و المراجع

- 1-القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، القاهرة، ط2، 1416هـ/1996م.
- 2-الفخر الرازي، تفسير الفخر الرازي، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، ط1، 1401هـ/1981م.
- 3-ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار السلام، الرياض، دار الفيحاء، دمشق، ط1، 1414هـ/1994م.
- 4-ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس ط1، 1984.
- 5- ابن عاشور: مقاصد الشريعة الإسلامية، ت: محمد الطاهر الميساوي، دار النفائس، الأردن، ط2، 1421هـ/2001م
- 6-الجوهري: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار الحديث، القاهرة، دون ط1430هـ/2009م.
- 7- جماعة من كبار اللغويين العرب، المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، توزيع لاروس، 1989.
- 8-الكفوي: الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: د.عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1432هـ/2010م.
- 9-المنائي: فيض القدير، شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1415هـ/1994م.
- 10- الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة، دار المعرفة، بيروت، ت، عبد الله دراز، دون تاريخ الطبع.
- 11-الشاطبي: الاعتصام، ت: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1408هـ/1988م.
- 12-الغزالي: مجموعة رسائل الإمام الغزالي (كتاب المنقذ من الضلال) دار الفكر، بيروت، 1429هـ/2008م.
- 13- السيوطي، سنن النسائي بشرح الحافظ السيوطي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1411هـ/1991م.
- 14- د.نعمان جعيم: طرق الكشف عن مقاصد الشارع، دار النفائس، الأردن، ط1، 1422هـ/2002م.
- 15- الصادق عبد الرحمن الغرياني: مدونة الفقه المالكي وأدلته، مؤسسة الريان، بيروت، ط1، 1423هـ/2002م.
- 16- فتحي الدريني: دراسات وبحوث في الفكر الإسلامي المعاصر، دار قتيبة، بيروت، ط1، 1408هـ/1988م.
- 17- النووي: صحيح مسلم بشرح النووي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ/1987م.
- 18-الراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن، دار الفكر، بيروت، ط1، 1426هـ/2006م.
- 19-ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، القاهرة، ط1، 1407هـ/1986م.
- 20- عبد الرحمن عبد الله سليمان الأغبري، العولمة وخطرها على الأمة الإسلامية، من الناحية السياسية والثقافية والاجتماعية، دراسة استقرائية وصفية تحليلية، مكتبة الإيمان، المنصورة، مصر، ط1، 1428هـ/2007م.
- 21-د.القرضاوي يوسف: كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1420هـ/2000م.
- 22- محمد الغزالي: ركائز الإيمان بين العقل والقلب، دار القلم، دمشق، ط4، 1420هـ/1999م.
- 23- الإمام الشافعي: الرسالة، ت: أحمد محمد شاكر، المكتبة العلمية، بيروت، 1309هـ/1892م.
- 24- طه جابر العلواني: أبعاد غائبة عن فكر وممارسة الحركات الإسلامية المعاصرة، ط2، 1417هـ/1997م.

- 25- د. سليم بركات، مفاهيم ومصطلحات: العالمية والعولمة، مقال منشور على الأنترنت: مجلة النبأ، العدد: 74، ص/2،
موقع: annabaa.org/nbahome/nba74/mafahem.htm
- 26- مجد خضر، مفهوم العالمية، مقال منشور على الأنترنت، ص/ 1، موقع: mawdoo3.com آخر تحديث،
22 مارس 2016 على الساعة، 12:08.